

محمد بن عبد الوهاب

(١١١٥ - ١٢٠٦ هـ) (١٧٠٣ - ١٧٩١ م)

هو زعيم الفرقة التي تسمى الوهابية ، وتعتنق مذهبه الحكومة الحاضرة في الحجاز .

نشأ في بلدة تسمى « العيينة » في نجد ، وتعلم دروسه الأولى بها على رجال الدين من الحنابلة ، وسافر إلى المدينة ليم تعلمه ؛ ثم طوّف في كثير من بلاد العالم الإسلامي ، فأقام نحو أربع سنين في البصرة ، وخمس سنين في بغداد ، وسنة في كردستان ، وستين في همدان ؛ ثم رحل إلى أصفهان ودرس هناك فلسفة الإشراق والتصوف ، ثم رحل إلى « قم » ، ثم عاد إلى بلده واعتكف عن الناس نحو ثمانية أشهر ، ثم خرج عليهم بدعوته الجديدة .

وأم مسألة شغلت ذهنه في درسه ورحلاته مسألة التوحيد التي هي عماد الإسلام ، والتي تبلورت في « لا إله إلا الله » ، والتي تميز الإسلام بها عما عداه ، والتي دعا إليها « محمد ﷺ » أصدق دعوة وأحرّها ؛ فلا أصنام ولا أوثان ، ولا عبادة آباء وأجداد ، ولا أحبار^(١) ولا نحو ذلك . ومن أجل هذا سمي هو وأتباعه أنفسهم « بالموحّدين » ؛ أما اسم الوهابية فهو اسم أطلقه عليهم خصومهم ، واستعمله الأوروبيون ، ثم جرى على الألسن .

وقد رأى أثناء إقامته في الحجاز ورحلاته إلى كثير من بلاد العالم الإسلامي أن هذا التوحيد الذي هو مزية الإسلام الكبرى قد ضاع ، ودخله كثير من الفساد . فالتوحيد أساسه الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا العالم ، والمسيطر

(١) أحبار جمع حبر ، وهو رئيس الدين .



خرائب العيينة ، موطن الشيخ محمد بن عبد الوهاب

عليه ، وواضع قوانينه التي يسير عليها ، والمشرع له ، وليس في الخلق من يشاركه في خلقه ولا في حكمه ، ولا من يمينه على تصريف أموره ؛ لأنه تعالى ليس في حاجة إلى عون أحد مهما كان من المقرين إليه ؛ هو الذي بيده الحكم وحده ، وهو الذي بيده النفع والضرر وحده لا شريك له ؛ فمعنى لا إله إلا الله : ليس في الوجود ذو سلطة حقيقية تسيّر العالم وفقاً لما وضع من قوانين إلا هو ، وليس في الوجود من يستحق العبادة والتعظيم إلا هو ، وهذا هو محور القرآن : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

إذن فما بال العالم الإسلاميّ اليوم يعدل عن هذا التوحيد المطلق الخالص من كل شائبة إلى أن يشرك مع الله كثيراً من خلقه ؟ فهذه الأولياء يُحج إليها . وتقدم لها النذور . ويُعتقد أنها قادرة على النفع والضرر ؛ وهذه الأضرحة لا أعداد لها ، تقام في جميع أقطاره ، يشدّ الناس إليها رحالهم ، ويتمسحون بها ، ويتذللون لها ، ويطلبون منها جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم ؛ ففي كل بلدة وليّ أو أولياء ، وفي كل بلدة ضريح أو أضرحة تُشرك مع الله تعالى في تصريف الأمور ودفع الأذى وجلب الخير . كأن الله سلطان من سلاطين الدنيا الفاشمين ، يُتقرب إليه بذوى الجاه عنده وأهل الزلّتي^(١) لديه ، ويُرجون في إفساد القوانين وإبطال العدل ؛ أليس هذا كما كان يقول مشركو العرب : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلّتي » وقولهم : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ؟ !

بل وأسفاه ! لم يكتف المسلمون بذلك ، بل أشركوا مع الله حتى النبات والجماد ؛ فهؤلاء أهل بلدة « منفوحة » باليمامة يعتقدون في نخلة هناك أن لها قدرة

(١) الزلّتي : التقرب .

هجية . مَنْ قصدها من العوانس تزوجت لعامها ؛ وهذا الغار في « البرعية » يحج إليه الناس للتبرك . وفي كل بلدة من البلاد الإسلامية مثل هذا ؛ ففي مصر شجرة الحنفي ، ونعل الكشني ، وبوابة المتولي^(١) ؛ وفي كل قطر حجر وشجر . فكيف يخلص التوحيد مع كل هذه العقائد ؟

إنها تصد الناس عن الله الواحد ، وتشرك معه غيره ، وتسيء إلى النفوس ، وتجعلها ذليلة وضيفة مخرفة ، وتجردها من فكرة التوحيد ، وتفقدتها التسامى . وأساس آخر يتصل بهذا التوحيد كان يفكر فيه « محمد بن عبد الوهاب » ، وهو أن الله وحده هو مشرّع العقائد ، وهو وحده الذي يحلّ ويحرّم ، فليس كلام أحد حجة في الدين إلا كلام الله وسيد المرسلين ، فالله يقول : « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله » ؛ فكلام المتكلمين في العقائد ، وكلام الفقهاء في التحليل والتحرّم ليس حجة علينا ؛ إنما إمامنا الكتاب والسنة ، وكل مستوف أدوات الاجتهاد له الحق أن يجتهد ؛ بل عليه أن يفعل ذلك ويستخرج من الأحكام — على حسب فهمه لنصوص الكتاب وما صح من السنة — ما يؤديه إليه اجتهاده . وإقبال باب الاجتهاد كان نكبة على المسلمين ؛ إذ أضع شخصيتهم وقوتهم على الفهم والحكم ؛ وجعلهم جامدين مقلّدين يبحثون وراء جملة في كتاب أو فتوى من مقلّد مثلهم ؛ حتى انحط شأنهم وتفرقوا أحزاباً يلعن بعضهم بعضاً ؛ ولا منجاة من هذا الشر إلا بإبطال هذا كله ، والرجوع إلى الدين في أصوله ، والاستقاء من منبعه الأول .

وهكذا شغلت ذهنه فكرة التوحيد في العقيدة مجردة من كل شريك ، وفكرة التوحيد في التشريع ، فلا مصدر له إلا الكتاب والسنة .

(١) شجرة الحنفي : شجرة كانت في جامع الحنفي يترك بها . ونعل الكشني : نعل قديمة في تمكية الكشني يزعمون أن الماء إذا شرب منها ينفع للتداوي من العشق . وبوابة المتولي مملوءة بالمسامير تعلق بها الثمور والحيوط ليذكر بالخير من علقها . وهكذا .

هذا هو أساس دعوة محمد بن عبد الوهاب ؛ وعلى هذا الأساس بنيت الجزئيات .
اقتنى في دعوته وتعاليمه عالماً كبيراً ؛ ظهر في القرن السابع الهجري في عهد
السلطان الناصر هو « ابن تيمية » ، وهو — مع أنه حنبلي — كان يقول بالاجتهاد
ولو خالف الحنابلة ، وكان حُرَّ التفكير في حدود الكتاب وصحيح السنة ، ذَلِقَ
اللسان ، قوى الحججة ، شجاع القلب ، لا يخشى أحداً إلا الله ، ولا يعبأ بسجن
مظلم ، ولا تعذيب مرهق ، فهاجم الفقهاء والمتصوفة ، ودعا إلى عدم زيارة القبور
والأضرحة وهدمها ، وألف في ذلك الرسائل الكثيرة ، ولم يعبأ إلا بما ورد
في الكتاب والسنة ، وخالف إمامه أحمد بن حنبل حين أداه اجتهاده إلى ذلك .
فيظهر أن « محمد بن عبد الوهاب » عرف ابن تيمية من طريق دراسته
الحنبلية ، فأعجب به ، وعكف على كتبه ورسائله يكتبها ويدرسها . وفي المتحف
البريطانيّ بعض رسائل لابن تيمية مكتوبة بخط ابن عبد الوهاب ، فكان
ابن تيمية إمامه ومرشده وباعث تفكيره ، والموحى إليه بالاجتهاد والدعوة
إلى الإصلاح .

دعا مثله إلى ردّ البدع والتوجه بالعبادة والدعاء إلى الله وحده ، لا إلى
المشايخ والأولياء والأضرحة ، ولا بوساطة توسل ولا شفاعة . وزيارة القبور إن
كانت فلفظة والاعتبار ، لا للتوسل والاستشفاع ، فهم لا يملكون شيئاً بجانب الله
وقوانينه الثابتة التي لا تتخلف والتي نظم الله بها كونه ، فالذبح للقبور والنذور
لها والاستغاثه بها والسجود عندها شرك لا يرضاه الله ، وهو هدم للتوحيد — الذي
جاء به الإسلام — من أساسه ، ومثل ذلك تخصيص القبور^(١) وبناء الأضرحة
وتشييد الأبنية عليها ، وكسوتها بالحجر المذهب وما إلى ذلك ، فكل هذه
لا يعرفها الإسلام .

(١) طلاؤها بالجبس .

فكانت دعوة ابن عبد الوهاب حرباً على كل ما ابتدع بعد الإسلام الأول من عادات وتقاليد ، فلا اجتماع لقراءة مولد ، ولا احتفاء بزيارة قبور ، ولا خروج للنساء وراء الجنائز ، ولا إقامة أذكار يُغنى فيها ويرقص ، ولا « محمل » يُتبرك به ويتمسح ، ويحتفل به هذا الاحتفال الضخم ، وهو ليس إلا أعواداً خشبية لا تضر ولا تنفع .

كل هذا مخالف للإسلام الصحيح يجب أن يزال ، ويجب أن نعود إلى الإسلام في بساطته الأولى ، وطهارته ونقاته ، ووحدانيته واتصال العبد بربه من غير واسطة ولا شريك . فلا إله إلا الله معناها كل ذلك . والكتب المملوءة بالتوسلات كتب ضارة بالعقائد ، كدلائل الخيرات ؛ وما في البردة من مثل قوله :
يا أكرم الخلق ما لي من أوذ به سواك عند حدوث الحادث العم (١)
وقوله :

إن لم تكن في معادى آخذاً بيدي فضلا وإلا فقل يا زلة القدم
وقوله :

فإن من جودك الدنيا وضررتها ومن علومك علم اللوح والقلم (٢)
ونحو ذلك ، أقوال فاسدة كاذبة . فلا التجاء إلا إلى الله ، ولا اعتماد في الدنيا والآخرة إلا عليه .

لقد كان محمد بن عبد الوهاب ومن نحا نحوه يرون أن ضعف المسلمين اليوم وسقوط نفسياتهم ليس له من سبب إلا العقيدة . فقد كانت العقيدة الإسلامية في أول عهدنا صافية نقية من أى شرك . وكانت لا إله إلا الله معناها السمو بالنفس عن الأحجار والأوثان وعبادة المظالم وعدم الخوف من الموت في سبيل الحق .

(١) العم : الشامل .

(٢) ضررتها : أى الآخرة .

وعدم الخوف من استنكار المنكر والأمر بالمعروف مهما تبع ذلك من عذاب .
ولا قيمة للحياة إلا إذا بذلت في رفع لواء الحق ودفع الظلم ؛ وهذا هو الفرق
الوحيد بين العرب في الجاهلية والعرب في الإسلام ، وبهذه العقيدة وحدها غزوا
وفتحوا وحكموا . ثم ماذا ؟ .

ثم لم يتغير شيء إلا العقيدة ، فتدنوا من سمو التوحيد إلى حضيض الشرك ،
فعددت آلهتهم من حجر وشجر وأعواد خشب وقبور أولياء ، وركنوا إلى ذلك
في حياتهم العامة ؛ فالزرع ينجح لرضا ولي ويخيب لغضبه ، والبقرة تحيا إذا نُذرت
للسيد البدوي أو مثله ، وتموت إذا لم تُندَر ، وهكذا في الأمراض والعلل والغنى
والفقر ، كلها لا ترجع إلى قوانين الله الطبيعية ، وإنما ترجع إلى غضب الأرواح
ورضاها . ومثل هذه النفوس الضعيفة التي تذلل للحجر والشجر والأرواح ،
لاستطيع أن تقف أمام الولاة والحكام الظالمين تأسرم بمعروف أو تنهاهم عن منكر ،
فذلوا للحكام والاغنياء كما ذلوا للخشب والاحجار . وما زال كل قرن يمر ترداد
معه الألهة عدداً وتزداد النفوس دلة ، حتى وصلت الحال بالأمة الإسلامية إلى فقد
سيادتها ، وانهباء عزتها . ولا يصلح آخر الإسلام إلا بما صلح به أوله ، فلا بد
من العودة إلى الحياة الإسلامية الأولى حيث التوحيد الصحيح والعزة الحققة ،
ولا بد من هدم هذه البدع والخرافات باللين إن نجح ، وبالقوة إن لم ينجح ،
والله المستعان .

لم ينظر محمد بن عبد الوهاب إلى المدنية الحديثة وموقف المسلمين منها ،
ولم يتجه في إصلاحه إلى الحياة المادية كما فعل معاصره محمد علي باشا ، وإنما أتجه
إلى العقيدة وحدها والروح وحدها . فعنده أن العقيدة والروح هما الأساس وهما
القلب ، إن صلحا صلح كل شيء ، وإن فسدا فسد كل شيء ، وطبيعي أن يكون
هذا هو الفرق بين رئيس الدين في نجد ورئيس الحكم في مصر .

أما بعد ، فإن التوحيد الصحيح المطلق المجرد عن شائبة كل تجسيم ، المنزه عن كل تشخيص ، الذي يصل العبدَ بربه من غير وساطة ولا وسيلة ، مطلب عسير لا يستطيعه إلا الخاصة أو خاصة الخاصة . أما من عدام فيشعرون بالتوحيد لحظات ثم سرعان ما يتدهورون ، ويشوب عقيدتهم نوع من التشخيص ، وأسلوب من التجسيم على نحو ما ، ثم يتخذون من الصالحين وسائل وزُلقى — كان ذلك في الجاهلية ، وكان ذلك في الإسلام بعيدَ البعثة إلى الآن .

فالمؤرخون يروون أن أهل الطائف لما أسلموا كان لهم بَنِيَّةٌ على اللات^(١) ، فأمر النبي بهدمها ، فطلبوا منه أن يترك هدمها شهراً لثلاث يروِّعوا نساءهم وصبيانهم حتى يدخلهم في الدين ، فأبى ذلك عليهم وأرسل معهم المغيرة بن شعبه وأبا سفيان ابن حرب وأمرهما بهدمها .

وفي الحديث أن العرب كانت لهم في الجاهلية شجرة تسمى « ذات أنواط » كانوا يملقون بها سلاحهم ويمكفون حولها ويمظمونها ، فسأل بعض المسلمين رسول الله أن يجعل لهم كذلك « ذات أنواط » فهاهم عن ذلك .

ولما جاء عمر شعر أن بعض الناس أخذ يحنّ إلى العادات الجاهلية القديمة ، فرآهم يأتون الشجرة التي بايع رسول الله ﷺ تحتها بيعة الرضوان فيصلون عندها ، فبلغ ذلك عمر فأمر بها فقطعت .

ولما رأى عمر كعب الأحرار يخلع نعله ويلبس برجليه الصخرة عند فتح بيت المقدس ، قال له : « ضاهيت والله اليهودية يا كعب » .

وهكذا ما لبث بعض الناس حتى تراجع عن التوحيد المطلق الذي جاء به الإسلام ، لأن التحرير من المادة بأشكالها جميعاً ، والإفلات من قيود الحس ، والتسامي إلى الله فوق المادة وفوق الحس وفوق التشخيص ، يتطلب منزلة رفيعة من السمو العقلي تعجز عنه الجماهير .

(١) بنية : كعبة . اللات : صنم .

وقال النبي ﷺ « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ،
ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك » .

ثم سرعان ما اتخذ المسلمون قبور الصالحين وغير الصالحين مساجد ، ولم يكن
الصحابة الأولون يشدون الرحال إلى المشاهد ، ثم كان ذلك ، وهكذا كلما مضى
زمن كثرت فيه أصناف التعظيم للقبور والأضرحة وكثير من الأشجار والجماد .

وظهر الدعاة والمصلحون على توالي العصور يحاولون أن يردوا الناس عن هذا
ويرجعوهم إلى التوحيد وحده ، وكلما دعا داع إلى ذلك عُدِّب وأُهين ورُمى بالكفر
والإلحاد كما فعل بـابن تيمية ، فقد ألف الرسائل في هذا الموضوع ، وانتقد حال
المسلمين في استغاثتهم بالقبور ورحيلهم إليها ، وطوافهم بالصخرة في بيت المقدس ،
ورحيلهم إلى مشهد الخليل ومشاهد عسقلان ، وتمظيمهم حتى بعض آثار النصرانية،
فعدِّب وسجن ؛ وأتى بعده بقرون محمد بن عبد الوهاب هذا ، فدعا مثل هذه الدعوة
فرمى بالكفر . وأخيراً جاء الشيخ محمد عبده فدعا إلى المدول عن التوسل والشفاعة
والزيارة للقبور ، وملاً دروسه في التفسير بمثل هذه الدعوة ، فلقى من أهل زمنه
ما لم ينب عن أذهانتنا بعد .

هذا هو جوهر الدعوة التي دعا بها محمد بن عبد الوهاب ، فإذا كان
شأنها ومصيرها ؟

كانت جزيرة العرب عندما دعا محمد بن عبد الوهاب دعوته — التي شرحناها
فيما مضى — أشبه شيء بحالتها في الجاهلية ، كل قبيلة تسكن موضعاً يرأسها أمير
منها . هذا أمير في الأحساء ، وهذا أمير في العسير ، وهؤلاء أمراء في نجد والحج ،
ولا علاقة بين الأمير والأمير إلا علاقة الخصومة غالباً . ثم تتوزعها — أيضاً —
زعماء الإصلاح م — ٢

الخصومة بين البدو والحضر، فمن قدر من البدو على خطف شيء من الحضر فعل، ومن قدر من الحضر على التنكيل ببدو فعل؛ والطرق غير مأمونة، والسلب والنهب على أشدهما، وسلطة الخلافة في الآستانة تكاد تكون سلطة اسمية، ومظهرها تعيين الأشراف في مكة وإمدادهم ببعض الجنود وكفى.

لقد بدأ « محمد بن عبد الوهاب » يدعو دعوته — التي ذكرناها — في لين ورفق بين قومه. ثم أخذ يرسل الدعوة لأمرء الحجاز والطاء في الأقطار الأخرى حاثا لهم على استنهاض المهم في مكافحة البدع والرجوع إلى الإسلام الصحيح. كم من المصلحين دعوا مثل هذه الدعوة، ولكنها سرّت بسلام، وإن شابهها شيء فسجن الداعي أو التشهير به، ورميه بالكفر أو الزندقة، ثم ينتهي الأمر ويعود الناس سيرتهم الأولى؛ بل نرى من قام بمثل هذه الدعوة — فعلا — في المغرب كالشيخ أبي العباس التيجاني، فقد أمر بترك البدع ونهى عن زيارة القبور، وكثرت أتباعه حتى بلغت مئات الألوف، ولكن لم يلفت الناس والحكام أمره كما لفتهم محمد بن عبد الوهاب؛ وكذلك الشيخ محمد عبده دعا مثل هذه الدعوة فأجابه بعضهم، وأنكر عليه بعضهم، ثم أسدل الستار. فما السبب في نجاح الدعوة الوهابية دون الأخرى؟

السبب في هذا ما أحاط بالدعوة الوهابية من ظروف لم تنبأ لغيرها. فقد اضطهد في بلده العيينة، واضطر أن يخرج منها إلى الدرعية مقر آل سعود، وهناك عرض دعوته على أميرها محمد بن سعود فقبلها، وتماهدا على الدفاع عن الدين الصحيح ومحاربة البدع، ونشر الدعوة في جميع جزيرة العرب باللسان عند من قبلها، وبالسيف عند من لم يقبلها؛ وإذ ذلك دخلت الدعوة في دور خطير، وهو اجتماع السيف واللسان، وزاد الأمر خطورةً نجاح الدعوة شيئاً فشيئاً، ودخول الناس أفواجاً فيها، وإخضاع بعض الأمرء بالقوة لحكمها،

وكما دخلوا بلدة أزالوا البدع وأقاموا تعاليمهم ، حتى هددت الحركة كل جزيرة العرب . ولما مات الأمير ومات الشيخ تعاقد أبناء الأمير وأبناء الشيخ على أن يسيروا سيرة أبيهم في نصره الدعوة متكافئين ، وظلوا يعملون حتى غلبوا على مكة والمدينة .

وشعرت الدولة العثمانية بالخطر يهددها بخروج الحجاز من يدها ، وهو موطن الحرمين الشريفين اللذين يجملان لها مركزاً إسلامياً ممتازاً ، تفقد الكثير منه إذا فقدتهما .

فأرسل السلطان محمود إلى محمد علي باشا في مصر أن يُسِيرَ جيوشه لمقاتلة الوهابيين ؛ وكما أرسلت الجيوش لمقاتلتهم أرسلت الدعاية من جميع الأقطار الإسلامية للنيل من هذه الدعوة وتكفير مبتدعيها . وحمل علماء المسلمين عليها حملات منكرة ، وألقت الكتب الكثيرة في التخويف منها والتشنيع عليها .

وهكذا حدثت الحرب بالسيف والحرب بالكلام ، كل هذا خدم الدعوة الوهابية بلفت الأنظار إليها ، ودورانها على كل لسان . وزاد في شأنها أن الوهابيين انتصروا على حملة محمد علي ~~بجيشه~~ الأولى بقيادة الأمير طوسون .

ثم أعد محمد علي ~~بكل~~ العُدَّة القوية الكبيرة ، وسار بنفسه وحاربههم بخير سلاحه ، فانتصر عليهم ، وأتم النصر ابنه إبراهيم باشا ، وانهزمت قوة الوهابيين . ولكن بقيت الدعوة إلى أن هُيِّئَ لها في العهد الحاضر المملكة السعودية الحاضرة في تاريخ طويل لا يعنيننا هنا ، وإنما يهمننا الدعوة وما تم لها .

إن الدعاية التي أحكت ضدها ، وتعلق الناس بالدولة العثمانية ، وميلهم الشديد أن تظل بلادها وحدة لا ينفصل عنها جزء ، جعلت عامة المسلمين في أقطار العالم الإسلامي يفرحون بهزيمة الوهابية ، ولولم يفهموا جوهر دعوتها . وشيء آخر كان كبير الأثر في تنفير عامة المسلمين من هذه الحركة ، وهو أنها

حيث استولت على بلد نفذت تعاليمها بالقوة ولم تنتظر حتى يؤمن الناس بدعوتها؛ فلما دخلوا مكة هدموا كثيراً من القباب الأثرية، كقبة السيدة خديجة، وقبة مولد النبي ﷺ، ومولد أبي بكر وعلي؛ ولما دخلوا المدينة رفعوا بعض الخلى والزينة التي كانت على قبر الرسول؛ فهذه كلها أثار غضب كثير من الناس وجرحت عواطفهم. فمنهم من حزن على ضياع معالم التاريخ. ومنهم من حزن على الفن الإسلامي. ومنهم من حزن لأن مقبرة الرسول ﷺ وفخامتها مظهر للعاطفة الإسلامية وقوة الدولة؛ وهكذا اختلفت الأسباب واشتركوا في الغضب. والوهابيون لم يعبثوا إلا بإزالة البدع والرجوع بالدين إلى أصله.

قد اهتموا بالناحية الدينية وتقوية العقيدة وبالناحية الخلقية كما صورها الدين. ولذلك حيث سادوا قلت السرقة والفجور وشرب الخمر وأمن الطريق وما إلى ذلك؛ ولكنهم لم يمسوا الحياة العقلية ولم يعملوا على ترقيتها إلا في دائرة التعليم الديني. ولم ينظروا إلى مشاكل المدنية الحاضرة ومطالبها. وكان كثير منهم يرون أن ما عدا قطرم من الأقطار الإسلامية التي تنتشر فيها البدع ليست ممالك إسلامية. وأن دارهم دار جهاد؛ فلما تولت حكومة ابن سعود الحاضرة كان لا بد أن تواجه هذه الظروف، وتقف أمام منطلق الحوادث. ورأت نفسها أمام قوتين قويتين لا ممدى^(١) لها عن مسيرتهما: قوة رجال الدين في نجد المتمسكين أشد التمسك بتعاليم ابن عبد الوهاب والمتشددين أمام كل جديد فكانوا يرون أن التلغراف السلكي واللاسلكي والسيارات والعجلات من البدع التي لا يرضى عنها الدين. وقوة التيار المدني الذي يتطلب نظام الحكم فيه كثيراً من وسائل المدنية الحديثة كما يتطلب المصانعة والمدارة. فاختلفت لنفسها طريقاً وسطاً شاقاً بين القوتين. فقد عدلت نظرها إلى الأقطار الإسلامية الأخرى وهدتهم مسلمين.

(١) لا ممدى: لا بد.

وبدأت تنشر التعليم المدني بجانب التعليم الديني ، وتنظم الإدارة الحكومية على شيء من النمط الحديث . وتسمح للسيارات والطائرات واللاسلكي بدخول البلاد واستعمالها وما إلى ذلك . وما أشقه عملاً : التوفيق بين علماء نجد ومقتضيات الزمن ، وبين طبائع البادية ومطالب الحضارة .

* * *

لم تقتصر الدعوة الوهابية على الحجاز والجزيرة العربية ، بل تعدتها إلى غيرها من كثير من الأقطار الإسلامية . وكان موسم الحج ميداناً صالحاً وفرصة سانحة لعرض الدعوة على أكابر الحجاج واستمالتهم إلى قبولها . فإذا عادوا إلى بلادهم دعوا إليها . فترى في زنجبار طائفة كبيرة من المسلمين يمتنون هذا المذهب ، ويدعون إلى ترك البدع . وعدم التقرب بالأولياء .

وقام في الهند زعيم وهابي اسمه السيد أحمد . حج سنة ١٨٢٢ م ، وهناك آمن بالمذهب الوهابي ، وعاد إلى بلاده ، فنشر هذه الدعوة في بنجاب وأنشأ بها شبه دولة وهاية ، وأخذ سلطانه يمتد حتى هدد شمال الهند ، وأقام حرباً عواناً^(١) على البدع والانحرافات . وهاجم الوعاظ ورجال الدين هناك . وأعلن الجهاد ضد من لم يمتنع مذهبهم ويقبل دعوتهم ، وأن الهند دار حرب ؛ ولقيت الحكومة الإنجليزية متاعب كثيرة شاقة من أتباعه حتى استطاعت إخضاعهم .

وكذلك حضر الإمام السنوسي مكة حاجاً ، وسمع الدعوة الوهابية واعتنقها ، وعاد إلى الجزائر يبشر بها ، ويؤسس طريقتة الخاصة في بلاد المغرب كما سيأتي بيانه . وفي اليمن ظهر أعلم علمائه ، وإمام أئمة وهو الإمام الشوكاني المولود سنة ١١٧٢ هـ . فسار على هذا النهج نفسه ، وإن لم يتلقه عن ابن عبد الوهاب ، وألف كتابه القيم « نيل الأوطار » شارحاً فيه كتاب ابن تيمية « منتقى الأخبار » ،

(١) عواناً : متكررة ، مشتدة .

عارضاً الأحاديث النبوية ، مجتهداً في فهمها ، وفي استنباط الأحكام الشرعية منها ولو خالف المذاهب الأربعة كلها ؛ وحارب التقليد ودعا إلى الاجتهاد وثارَت من أجل ذلك حرب كلامية شعواء^(١) بينه وبين علماء زمنه ، كان أشدها في صنعاء . وألف في ذلك رسالة سماها « القول المفيد في حكم التقليد » ؛ ودعا في قوة إلى عدم زيارة القبور والتوسل بها ، فقال في نيل الأوطار^(٢) : « وكَم سَرَى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفسد يبكي لها الإسلام ، (منها) اعتقاد الجملة لها كاعتقاد الكفار للأصنام ، وعَظَمَ ذلك فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر ؛ ففعلوها مقصداً لطلب قضاء الحوائج وملجأ لنجح المطالب ، وسألوا منها ما يسأل العباد من ربهم ، وشدوا إليها الرحال وتمسحوا بها واستغاثوا . وبالجملة فإنهم لم يدعوا شيئاً مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه ، فإننا لله وإنا إليه راجعون .

« ومع هذا النكر الشنيع والكفر الفظيع ، لا نجد من يغضب لله ، ويغار حمية للدين الحنيف لا عالماً ولا متعلماً ، ولا أميراً ولا وزيراً ولا ملكاً ، وقد توارَد إلينا من الأخبار ما لا يُشك معه أن كثيراً من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من قبل خصمه حلف بالله فاجراً ، فإذا قيل له بعد ذلك : احلف بشيخك ومعتدك الولي الفلاني تلعم وتلكأ ، وأبي واعترف بالحق ؛ وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال إنه تعالى ثانی اثنين وثالث ثلاثة .

« فيا علماء الدين ، ويا ملوك المسلمين ، أي رزء للإسلام أشد من الكفر ، وأي بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله ، وأي مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة ، وأي منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك للبين ؟ »

(١) شعواء : منتشرة ، ممتدة .

(٢) جزء ٣ ص ١٣٤ من الطبعة الأميرية .

وقد مات الإمام الشوكاني سنة ١٢٥٠ بعد أن أبلى في هذا بلاء عظيماً ،
وخلف تلاميذ كثيرين يدينون برأيه .

وفي مصر شبَّ الشيخ محمد عبده فرأى تعاليم ابن عبد الوهاب تملأ الجو ،
فرجع إلى هذه التعاليم في أصولها من عهد الرسول إلى عهد ابن تيمية ، إلى عهد
ابن عبد الوهاب ؛ وكان أكبر أمله أن يقوم في حياته للمسلمين بعمل صالح ، فأداه
اجتهاده وبخه إلى هذين الأساسين اللذين بنى عليهما محمد بن عبد الوهاب تعاليمهما :
(١) محاربة البدع وما دخل على العقيدة الإسلامية من فساد بإشراك الأولياء
والتعبور والأضرحة مع الله تعالى ، و (٢) فتح باب الاجتهاد الذي أغلقه ضعاف
العقول من المقلدين ، وجرّد نفسه لخدمة هذين الغرضين ، ولكنه امتاز بميزة
كبرى عن عداه ، وهي ثقافته الواسعة الدينية والدنيوية ، ومعرفته بشؤون الدنيا
وأسسها وتياراتها ، وذلك بتربيته الدينية الأولى المستمرة ، وبانغماسه في الأمور
السياسية واطلاعه على الثقافة الفرنسية ، ورحلاته إلى أوربة يخاطب علماءها
وقلاستها وساستها . فلما تعرّض لمثل ما تعرض له ابن عبد الوهاب فلسف الدعوة
وركزها على أسس نفسية واجتماعية ، كما شارك في تركيزها على الأسس الدينية ؛
ففي دروسه في التفسير التي كان يلقيها في الرواق العباسي بالأزهر ، كان ينتهز كل
إشارة لآية ولو من بعيد تندّد بالشرك فيفيض في الحملة على عبادة الصالحين ، وزيارة
القبور والشفاعة والتوسل وما إلى ذلك . فيطيل الوقوف — مثلاً — عند قوله
تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ
آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ،
وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ » ، فيقسّم الشيخ الأنداد إلى قسمين : هؤلاء الشفاء
الذين اتخذهم الناس وسيلة للقرب من الله يستقضونهم في الحوائج ، وهؤلاء الذين
يقلّدون في الدين ويتخذ قولهم شرعاً من غير حجة ولا برهان . وتظهر فلسفته

للمذهب في بيان الأضرار النفسية من هذه العقائد ، فهي تُورث الذل وتخضع الناس للحكام الظالمين ، وتَحطُّ النفوس إلى الدركِ الأسفل ، ثم هي تضر اجتماعياً باعتماد الناس على هؤلاء الأولياء بتركهم القوانين الطبيعية التي جعلها الله أسباباً لا بد منها لحصول المسبب . فالزراعة إنما تنجح بالحرث والتسميد والبذر والسقي ، لا بالاستغاثة بولي ؛ والحرب إنما تكسب بانتحاذ سلاح مجهز على آخر طراز كسلاح العدو ، وإعداد المدة الكاملة كما يفعل العدو ، لا بالاستعانة بأهل القبور . وفضيلة المسلم أن يستعين بعد ذلك كله بالله وحده ، يطلب منه أن يثبت قلبه ، ويلهمه التوفيق . وهكذا كان يُبيض في هذين الأساسين مفنداً آراء من يقول بالتوسل والشفاعة والتقليد .

وينتـهـز فرصة وجود جماعة من العلماء عنده في يوم مولد النبي ، ودعوته للعشاء عند أحد المحتفلين ، فبيّن لهم أن هذه الموالد كلها منكرات ، ويتمنى لو أنفق ما يُصرف في الموالد على تعليم الفقراء ، وينظروم في ذلك مناظرة تنتهي بانصراف العلماء إلى العشاء في المولد ، وامتناع الشيخ وحده .

ويضع الشيخ تفسيراً لجزء « عم » للناشئة فيلبس كل وسيلة للحملة على كل ما يشوب التوحيد من شرك بعبادة المشايخ والقبور والأضرحة والتخريف ، راجياً أن ينشأ الشباب نشأة دينية صحيحة خيراً مما عليه آباؤهم — وأعانه في هذه السبيل تلميذه وصديقه السيد محمد رشيد رضا في مجلة المنار ، فقد ملأها كذلك بمثل هذه الدعوة ومثل هذه الحجج ، يُسمع بها المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية .

وفي تركيا قامت الحكومة التركية الكالية بمحاربة هذه البدع والخرافات فأغلقت التكايا وكانت عش التدجيل ، وطاردت المشايخ ، واضطهدت المهرجين ؛ ولكن الفرق بين هذه الحركة وما قبلها أن كل الحركات السابقة كانت مؤسسة على الدين والإصلاح الديني ، والرجوع إلى الأصول الدينية ، أما هذه الحركة

فمؤسسة على العقل المطلق ، وفكرة الإصلاح الاجتماعى من غير أن يكون الدافع إليها الرغبة فى الإصلاح الدينى .

وأخيراً وقد مضى على هذه الدعوة الإصلاحية من عهد محمد بن عبد الوهاب إلى الآن عشرات السنين ، واشترك فى تنظيم الغزوة عشرات من الأبطال ، فماذا كانت النتيجة ؟

ظلت عامة المسلمين فى جميع الأقطار الإسلامية — كما هم — من حيث الالتجاء فى قضاء الحوائج إلى المشايخ والقبور والأضرحة ، وظلت على عاداتها فى الاحتفال بالموالد ونحوها وإن قل بهاؤها ورونقها ، وإنما تأثر بهذه الدعوة الخاصة أو خاصة الخاصة . كما تأثر بها ناشئة الشباب المثقفين بحكم ثقافتهم ونمو عقليتهم ؛ فلم يلجئوا إلى المزارات والمشايخ كما كان يلجأ آباؤهم ؛ ولكن أخشى ألا يكون كثير منهم يلجأ إلى الله أيضاً كما كان يلجأ آباؤهم .
والآن ننتقل إلى نوع آخر من الإصلاح كان مظهره مدحت باشا فى تركيا .